مقدمة :

احتفالية لا يصح أن نغيب عنها

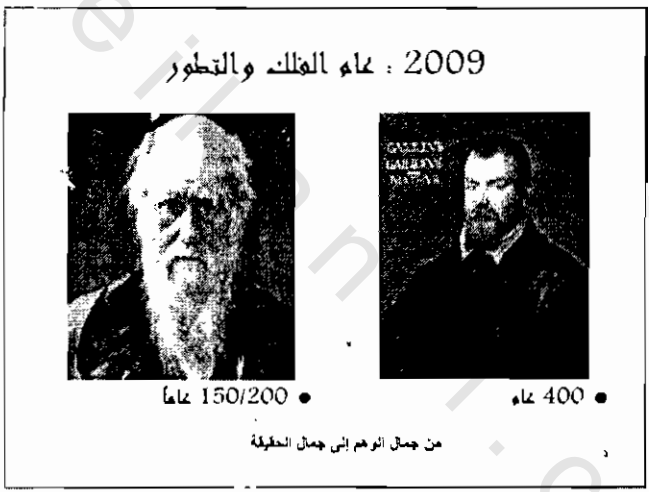

٢٠٠٩ : عام الفلك والتطور

سمى ٢٠٠٩ بهذا الاسم لأنه يؤرخ لحدثين هامين فى تاريخ العلم والإنسان: مرور أربعة قرون على استخدام جاليليو لتليسكوبه الشهير فى اكتشاف الفضاء ورصد نجومه وكواكبه، ومرور مائتى عام على ميلاد تشارلز داروين، ومائة وخمسين عامًا على صدور كتابه «أصل الأنواع»، الذى يوضع بحق على رأس قائمة الكتب التى ألفها بشر على مر التاريخ.

لقد غير هذان الحدثان رؤية الإنسان للعالم وموقعه فيه، ودفعا البعض إلى النظر بريبة إلى العلم، الذى أنهى «جمال الوهم» فى أذهانهم، دون أن يستوعبوا «جمال الحقيقة»: كيف كان ذلك؟ إليكم البيان.

لقد ركن البشر طويلاً إلى ما أسمته «بجمال الوهم»، حيث اعتقدوا أن كوكب الأرض، الذى يمثل بحق مسكنهم الكونى، يقع فى مركز هذا الكون الفسيح، وأنهم كائنات مفارقة عن كل ما فيه، وجاء كوبرنيكوس ليزيح الأرض من

هذا المركز، ثم أوضح جاليليو أنها كوكب صغير يدور حول الشمس، التى تعد واحدة من نجومه فائقة العدد.

ثم جاء داروين ليوضح العلاقة بين الكائنات الحية كلها، وعدم ثبات الأنواع، بل تطورها المستمر للتكيف مع بيئاتها الطبيعية بما يؤدى إلى ظهور أنواع جديدة. وقدم آلية الانتخاب الطبيعى لتفسير أصل الأنواع. إن فى مسوداته رسم شهير، وضعه تحت عبارة «أنا أعتقد I think»، لشجرة متعددة الفروع، تجمع الأشكال الكبيرة لكل الكائنات، سميت «بشجرة الحياة».

obeikandl.com

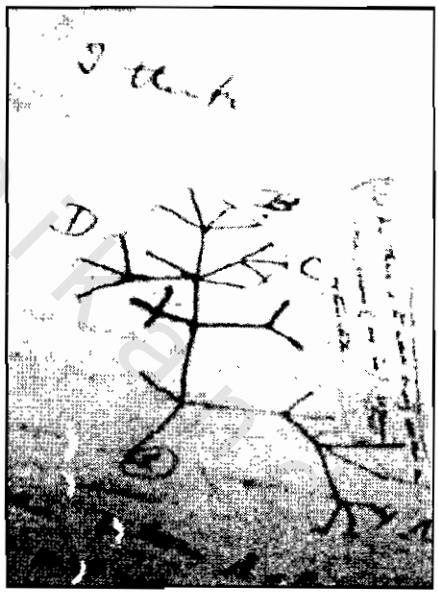

شجرة الحياة كما رسمها داروين فى إحدى مسوداته

والواقع أن العلم، الذى خلص الإنسان «من جمال الوهم»، لم يتركه قبل أن يقدم له الجمال الأفضل: «جمال الحقيقة». فموقع الأرض فى الكون، فى المجموعة الشمسية بالذات، ودورانها حول هذا النجم على هذه المسافة بالذات، مكنا من ظهور الحياة وتنوعها، اللذان انتهيا بظهور الإنسان. وتفرد الإنسان ليس بانفصاله عن عالم الحياة، ولكن بتميزه بالعقل والوعى باعتباره خليفة الله فى الأرض. لقد ميز الخالق كل كائن من الكائنات بخصائصه التى تجعله فريدًا فى حد ذاته. لكنه اختص الإنسان بهذه الخصائص التى تعد قبسا منه، فصار بالوعى والعقل هو الكائن الوحيد الذى يدرس الطبيعة كلها، بما فيها من كائنات، ويطوعها لصالحه. وإذ يصيب ويخطئ فى القيام بدوره، فذلك لأنه الكائن المسئول صاحب العقل والإرادة. هذا هو «جمال الحقيقة» بأجلى معانيه.

إن «عام الفلك والتطور» يدفعنا إلى أن نتفكر فى وعد الله أن يرينا آياته فى الآفاق وفى أنفسنا، وفى أمره لنا أن نسير فى

الأرض لننظر كيف بدأ الخلق. إننا أتباع رسالة تحمل أكبر دعوة للعلم، وأولى الأمم بالاحتفال بمغزى هذا العام!!! وسنرى فى استعراضنا لتاريخ الفكر التطورى أن العديد من علمائنا ومفكرينا العظام لم يقصروا فى ذلك. وإذا كنا نقتصر هنا على الحديث عن التطور، فإن لهم فى الفلك باع طويل لا مجال لتفصيله هنا. ويكفى أن نحيل القارئ إلى موسوعة ويكيبديا الحرة على الإنترنت، التى نرجو لها الاستمرار لأنها تتعرض لبعض المشاكل وقت كتابة هذه السطور، ليدرك تقدير العالم لما قدمه العرب والمسلمون من عطاء، ويطالع ما كتب عن الخوارزمى والبيرونى والطوسى وغيرهم فى هذا المجال.

لكننا قبل أن ننهى الحديث عن عام «الفلك والتطور» نود أن نقدم نموذجًا عربيًا فريدًا «للثقافة العلمية الشاملة»، أشار إليه عالمنا الكبير الدكتور عبد الحافظ حلمى، وهو المدقق فى تحقيق التراث العلمى للعرب والمسلمين، وذلك فى دراسته المنشورة فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (الجزء الحادى

والسبعين، جمادى الأولى ١٤١٣ هـ/ نوفمبر ١٩٩٢م) تحت عنوان «المعارف البيولوجية فى رسائل إخوان الصفا». ففى الرسالة السادسة والعشرين حكاية عن ملك أراد أن يربى أولاده على العلم والحكمة، فبنى لهم قصرًا فى قبة مجلسه «صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها، وأبراج طلوعهاتها، وكذلك الكواكب وتحركاتها، وأوضح دلائلها وأحكامها». ثم نستطرد الحكاية قائلة: «وصور فى صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم، وخطط الجبال والبحار والبرارى والأنهار...». ثم تنتقل الحكاية إلى صدر المجلس حيث صور «علم الطب والطبائع، وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها... إلخ». إن عالمنا الفاضل، وهو يسجل إعجابه بهذه الحكاية التربوية التثقيفية، يشبه الأجزاء الواردة فى النصوص السابقة بوصف مبكر للقبة والسماوية كما نعرفها اليوم، ثم بالأطالس المجسمة التى تسعى الجمعيات والمتاحف الجغرافية إلى اقتنائها، ثم بوسائل الإيضاح العلمية والتعليمية.

وهو محق فى هذا كله، فالحكاية كما ذكرنا قد تعد من أوائل أمثلة الثقافة العلمية، وهى تذكرنى بفيلم شهير عن تاريخ الكون من الانفجار العظيم حتى ظهور الإنسان والحضارة، يعرض فى القبة السماوية بمكتبة الإسكندرية. وكذلك رائعة كارل ساجان عن «الكون».

التطور: موقف الكاتب ومنطلقات الكتاب:

إننا نحتفى بسياقنا الثقافى احتفاء محبة وانتماء، ونسعى إلى تطويره وتخليصه من سلبياته، لأن الكمال لله وحده، بالاستناد إلى اللحظات المضيئة فى تراثنا وما أكثرها، والانفتاح على ثقافات غيرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن. وإذ نقوم بتقديم «العلم النافع» فى كل مجالاته للمجتمع، فإننا نفعل ذلك لأنه «فرض كفاية» على كل مشتغل بالعلم وقادر على تيسيره لغيره. فنحن نتمنى أن نكون ممن يتعلمون العلم ويعلمونه.

ولأن موضوع التطور يتعرض لكثير من الخلط بين الدين والعلم، فمن حق القارئ أن يعرف رأينا فى ذلك، حتى وإن

كنا قد سبق أن بيناه فى مواضع وكتب أخرى (العلم ثقافة المستقبل، المكتبة الأكاديمية – ١٩٩٣، إلا العلم يا مولاى، دار العين ومكتبة الأسرة – ٢٠٠٤). إننا نرى أن الخلط بين الدين والعلم يضر بالاثنين معًا، وإن كنا لا نعرف ماذا يقصد بالفصل بينهما. فالمطلوب توضيح العلاقة السليمة بينهما، التى تمكن البشر من الاستفادة من هذين المجالين التى لا غنى عنهما وعن تكاملهما.

إن الخلط ضار لاختلاف المنهج، فالدين يقوم على اليقين والالتزام، والعلم يقوم على الشك والتصحيح المستمر. لذلك، فقداسة النص الدينى معيار لقوة الإيمان، الذى يضار لو لم نتمسك بها. وهذا لا يعنى عدم اجتهاد المتخصصين فى تفسيره وتوضيحه لنا، حتى نبدى الإيمان بالفهم والاستيعاب. أما قداسة النصوص والنتائج العلمية فكارثة على العلم والعقل معًا، لأن النقد هو روح العلم، الذى يتقدم بالتخطئة والتجاوز والتصحيح باستمرار.

وإذا كان الأمر كذلك، لماذا نرفض الفصل بينهما؟ إن

الإجابة بسيطة ومباشرة. فتطور العلم يؤدى إلى العديد من التطبيقات التكنولوجية ذات الآثار بعيدة المدى أخلاقيا وقانونيا واجتماعيا. لذا حرص القائمون على «مشروع الجينوم البشرى» مثلاً على تخصيص ٣ – ٥٪ من ميزانيته للدراسات العلمية الخاصة بهذه الآثار. ولأن الدين هو المصدر الرئيسى لمنظومة القيم فى مجتمعاتنا فلابد وأن نستلهمه ونحن نناقش آثار هذه التطبيقات، حتى ينطبق على العلم وتطبيقاته مفهوم «العلم النافع»، الذى قدمته حضارتنا العربية والإسلامية للبشرية، وإن كنا قد قصرنا فى توضيحه لغيرنا بصورة ملائمة. وهذا للأسف هو الواقع الذى جعلنا فى موضع الدفاع بدلا من أن نكون فى موضع النصح والتوجيه. لذلك نرفض الفصل، وندعو إلى العلاقة السوية بين الدين والعلم.

أخيرًا، إذا كنا قد رفضنا الفصل فقد رفضنا الخلط الذى يضر بهما معًا لاختلاف المنهج كما بينا. ونضيف هنا عدم الخلط فى المصطلح أيضًا، وليس فى المنهج فقط. ولكاتب هذه السطور تجربة شخصية تتعلق بالتطور وخلط المصطلحات.

ففى شهر رمضان المبارك، منذ قرابة الأربعين عامًا، كنت خارج البلاد. ولأن الآذان بصوت الشيخ محمد رفعت من الأمور المحببة لدينا فى هذا الشهر الكريم، ظللت أبحث بين محطات المذياع عن صوت مصر. وعندما عثرت على المحطة هالنى ما قاله المذيع: «نحن قوم نؤمن بالله ولا نؤمن بالتطور»!!! كيف نضع إيماننا بالحق فى كفة، ونظرية علمية تصيب وتخطئ، وتصحح أخطاءها فى كفة أخرى؟ إن مصطلح الإيمان يتنزه عن ذلك. فنحن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. هذه هى مواضيع الإيمان. أما العلم فنقتنع بما هو يستحق الاقتناع به، ولا نقتنع بغيره. أنا لا أؤمن بالتطور، فهو ليس موضوعًا للإيمان. لكننى مقتنع به كأفضل تفسير يقدمه العلم حتى الآن للعلاقة بين الكائنات الحية، ويدقق ويصحح تفاصيله باستمرار، وفقًا للبحوث والاكتشافات الجديدة. ولا يجوز الخلط بين مصطلحى الإيمان والاقتناع بأى شكل من الأشكال. والخلاصة أن الإيمان المطلق بالله والاقتناع المشروط بالعلم هما موقف الكاتب والكتاب.